الجهد الاسرائيلي والصهيوني العالمي والاميركي في اعطاء مسألة الامن الاسرائيلي الاولوية والقدسية ، لانه الضمان الوحيد لحماية وتعزيز الدور والحجم اللذين تريد اسرائيل أن تلعبهما في المنطقة ، بحيث تحولت هذه المسألة الى المقياس الوحيد لصحة التجربة الاسرائيلية او فشلها والى القناعة الاسرائيلية التي لا تناقش . فاذا ما برهن العرب للاسرائيليين على أن سياج الامن الاسطوري قابل للانتهاك ، فان شظايا الانفجار تصيب العقيدة والدور والحجم في الصميم .

كان البروفيسور الاسرائيلي المتدين يشعياهو ليبوبتش قد حذر من أن السعي الى تأسيس امبراطورية اسرائيلية، اعتمادا على الايمان الاسرائيلي بأن قوته لا تقهر سيؤدي الى سقوط اسرائيل « كيف سنعيش في الفترة الطويلة التي حكم علينا فيها ان نعيش في حالة خطر حرب دائمة ؟ وما سيكون عليه شكل الدولة اليهودية التي ستضطر الى الدفاع عنها بضحايا كثيرة . ان العرب سيتقنون مهنة القتال كما اتقنها الجزائريون والفيتناميون » . بالاضافة الى خوف هذا المفكر الاسرائيلي من اتقان العرب لمهنة القتال ووضع اسرائيل في حالة خطر حقيقي ، فانه يخشى فقدان الطابع اليهودي لاسرائيل ، وهو المبرر الكلاسيكي لانشائها : « ان وضع مليون ونصف مليون عربي ضمن السلطة اليهودية معناه ضعضعة الماهية البشرية اليهودية للدولة وتدمير المبنى الاجتماعي الذي بنيناه ، وعزل الدولة عن الشعب اليهودي في العالم وعن التراث اليهودي . ولن تستمر السلطة اليهودية في البقاء فيها الا اذا تحول نظامها الى نظام مشابه لنظام البيض في روديسيا » .

ان كثيرين من المفكرين ، يهود وغير يهود ، قد رأوا منذ مدة طويلة أن التجربة الاسرائيلية شذوذ عن مجرى التاريخ ، وستثبت الايام بطلانها . ولكن اسرائيل كانت ترد على هذه الآراء باللجوء الى الواقع الذي تعتبره ناجحا ، وهو أن اسرائيل لا يمكن أن تتعرض الى خطر مميت ، لانها قلعة لا يمكن اختراقها . وبمعنى آخر ، فان اسرائيل ببرهنتها على « شرعية » وجودها التاريخية كانت تحتكم الى مقياس واحد هو القوة العسكرية . وكانت بذلك تسهل المناقشة التي أغناها يوم السادس من اكتوبر الحالي ببرهان عملي بمثابة سابقة هو أن قوتها العسكرية قابلة للكسر . وهذا يعني ان تجربتها قابلة للفشل لانها لا تقوم على حق وانما تقوم على شيء قابل للكسر .

من هنا يكون العرب ، بضربهم قوة الردع الاسرائيلية ، قد أثبتوا — مهما تكن نتائج المعارك — ان الحماية الاسرائيلية الوحيدة قابلة للاختراق في معارك أخرى ، وان الاسرائيليين لا يدافعون عن أفق ، بل يدافعون عن باب مسدود ، وانهم يكررون تجربة مسادة .

هكذا ، تكون البداية العربية — في المنظور التاريخي — بداية النهاية الاسرائيلية . ولكن من الواضح ان بداية النهاية لن تكون قصيرة .